إخاء الأديان بين اللاهوت والناسوت

د. محمد حبش[1]

يتخذ الحديث عن إخاء الأديان بُعدًا صادمًا في المجتمعات المحافظة، فقد حسم التقليد الديني أمره في الأديان السماوية كافة وبات هناك طريق واحد للحقيقة ولا يمكن تعدد الطرق، وغدا أتباع كل دين يلخصون رسالتهم بنقل الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى.

وجرت العادة أن تتناول لقاءات الحوار الديني عمومًا قضايا السياسة والمجتمع وتبتعد عن اللاهوت بوصفه طريقًا مغلقًا لا يمكن أن يقود إلى وفاق وسينتهي بتبادل الريب والاتهام، فالمتحاورون عمومًا لا يملكون قرارات أديانهم، وسيبقى الجدل محض ديماغوجيا يمارسها المتحاورون، ثم ينكفئ كل من الفريقين إلى معتكفه الإيديولوجي، ليعيد تقديم سرديته الخاصة بشكل يؤكد الأبواب المغلقة لكل أنواع الحوار في الأديان.

وتهدف هذه الدراسة إلى فتح هذا الباب المغلق تحديدًا، ومع تفهم حساسية الحوار في اللاهوت في المؤتمرات السياسية والشعبية فإن الأمر يختلف حين نكون في محراب الحقيقة بعيدًا عن الاصطفاف الإيديولوجي، حيث يؤمن عدد من الباحثين ومنهم كاتب هذه السطور أن بالإمكان بالفعل التوجه نحو إخاء حقيقي بين الأديان قائم على الشجاعة والمصارحة، واستخدام أدوات الدين التاريخية لإنتاج ثقافة متصالحة تنابذ الثقافة الإقصائية التي سادت في العصور الوسطى على خطاب الديانات ومنعت من التقارب إلا على سبيل من المخادعة والمكر.

وقد اخترت عنوان الدراسة إخاء الأديان بين الناسوت واللاهوت، وذلك بهدف دراسة الأمر في الجانب الاجتماعي واللاهوتي معًا، وقناعتي أننا طالما لم نجرؤ على الاقتراب من اللاهوتي فإننا نمارس فقط لونًا من النفاق، الذي تفرضه المصلحة

(1) الدكتور محمد حبش هو عالم ومفكر إسلامي وبرلماني وأكاديمي من سوريا. ويعمل أستاذا للفقه الإسلامي في جامعة أبوظبي منذ عام 2012، وهو مؤسس ومستشار لمركز الدراسات الإسلامية في سوريا. ويعرف الدكتور حبش بمنهجه التنويري وجهوده في إحياء حوار الأديان وثقافة التعايش السلمي.

الاجتماعية دون أن نجرؤ على مقاربة الحقيقة ومواجهة اللاهوت الإقصائي الذي طبع أوروبا في العصور الوسطى ولا يزال إلى اليوم يرسم ملامح علاقة هذه الأمة بسائر الأمم.

وفي الواقع فإن المجتمعات الإنسانية، ومنها معظم الدول الإسلامية، باتت تمارس قدرًا كبيرًا من الإخاء الديني، في إطار المعاملات والتواصل المجتمعي، وبشكل خاص في الدول الديمقراطية التي باتت قوانينها تفرض سلوكيات كثيرة من قبول الآخر واحترامه ومودته، ويمكن: القول إنّها قد هدّمت حواجز كثيرة من التمييز والاتهام، ولكنّها ترتدّ في لحظة النصّ إلى الحوارات العقيمة التي تجعل من الآخر دومًا شيطانًا ضالًا مصيره الشقاء والخذلان، تضيق به رحمة الخالق، وينال أشدَّ العقاب على ضلاله وإصراره، وهذا مدلول النصوص الظاهرة في الأديان الإبراهيمية بشكل خاص، ومن المؤكد أنّ هذا التفكير موجود بشكل أقل في الديانات الفيدية (الهندوسية والبوذية) ولكنّه غير موجود في الأديان الفولوكلورية الصينية واليابانية.

ولا شك في أنّ المسألة لا تتوقف عند الجانب اللاهوتي، بل هو أيسر المسائل، فهي تتعداه باستمرار إلى الشقاق الاجتماعي، وتبادل الريب والاتهام، وتحقير الذات الإنسانية، فمن كان عند الخالق حقيرًا مرذولًا لن يكون عند عباده في حال أفضل، وسيتنامى شعور الكراهية بشكل مطّرد من الإيديولوجيا إلى السوسيولوجيا، ومن ثم فإنّنا لن نكون أبدًا أمام مجتمع مستقر أو متراحم، بل سنجد أنفسنا أمام ركام من البغضاء قد تزيّنه بعض الممارسات، ولكنّه يرتدّ في لحظة الاصطفاف إلى جحيم الكراهية ونار البغضاء.

ومن المؤلم أنّ هذا الصراع انعكس أيضًا على جدل أتباع الأديان الذي بدا تسخيفًا وتشكيكًا، ثم صار تحقيرًا ولعنًا وتكفيرًا، ثم تحوّل إلى حروب ضارية، ووجدت هذه الحروب، باستمرار، تبريرًا أخلاقيًا على الرغم ممّا فيها من ممارسات التوحّش البهيمية، ووجدت للأسف من بات يطلق عليها الحروب المقدّسة، ويكرّس أبطالها ومجرميها رموز التضحية والفداء، ويطالب بتكرار أعمالهم المجيدة، بل إنّ العقود الأخيرة قدّمت نماذج تطبيقيّة مرعبة أذهلت العالم كلّه.

وتسعى هذه الدراسة إلى معالجة هذه المسألة وفق قراءة جديدة للنصوص الدينيّة، والتوفيق بين الديني والاجتماعي والفلسفي، وتعمد إلى استقراء النصوص الدينية الأساسية التي تتبنّى فكرة ضلال الآخر وخسرانه، وتحاول بناء وعي جديد قائم على ثقافة احترام الآخر اعتقادًا وديانة ومذهبًا، وتجتهد أن تلتمس أجمل ما في الأديان، وتتبنّى تشجيع الديانات على الإخاء والتراحم فيما بينها، ونزع أسباب التمييز والكراهية.

ويجب الاعتراف أنّه قد تحقق قدر جيّد من الإصلاح على المستوى الاجتماعي، وباتت لقاءات الأديان وتعاون أبنائها وحواراتهم جزءًا من طبيعة التحولات الاجتماعية، ولكن لم يتحقق ما يكفي على المستوى التربوي، وحين نمارس الإحسان في الذين كفروا ومعاملتهم بالودّ والبرّ والقسط كما يشير القرآن الكريم، ولكن نعتقد في الوقت نفسه أنّهم سيُصْلَوْن نارًا وقودها الناس والحجارة كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب، فإنّنا لا نريد أن نقول: إننا طيبون ولكن الله غاشم وماكر وماقت، وهو يستدرجهم في الدنيا ليمارس عليهم سادية أبدية، وهي قيم مدمّرة للبنيان الأخلاقي بكل تأكيد، ولا يمكن من وجهة نظري تبريرها إلاّ بتعسف يعصف بالمنطق كله.

ويجب التأكيد أننا لا نقصد في هذه الدراسة الحديث عن اللقاءات البروتوكولية بين أتباع الأديان، وتشجيع التعايش والمودة، وبناء ثقافة المواطنة، فهذه كلها مقاصد نبيلة، وهي تجري باستمرار وعلى مستويات كثيرة، ولكننا نهدف هنا إلى البحث في الجذور، وإلى تصحيح الوعي بعلاقة المسلم بالآخر المختلف على أساس تربوي واعتقادي، وليس وفق الحاجات الاجتماعية والقانونية.

فهل هذه العقائد التي ندرّسها لطلاّبنا في المعاهد الدينية هي حقًا الموقف النهائي من الآخر في الإسلام؟ وهل الآخر كافر لعين لمجرّد أنه يتديّن بدين آخر، أو لا يتديّن أصلًا؟ وهل كُتب على هذا الدين أن يكون في صراع أبدي مع الآخر المختلف؟ ومع المنطق والعدل والعقل؟

أم أنّ هناك موقفًا إنسانيًا مختلفًا قدّمته الحضارة الإسلامية عبر أعلامها المرموقين لبناء إخاء إنساني يقدّس الإنسان، ولا يحارب النبوّة، ويتخيّر أجود ما في الدين والحكمة لبناء مجتمع إسلامي متصالح مع نفسه ومع العالم من حوله.

إشكالية البحث

يمكن تعيين إشكالية البحث ومناطه في السؤال التالي: هل هناك ضرورة تحتّم ظهور تيار إخاء الأديان؟ وهل هي مصلحة دينية أم مجتمعية؟ وهل يتعين تعزيز الإنسانية بإشراف الأديان أم أنّ ذلك استحالة عقلية وواقعية؟

وهل سيوافق القادة الدينيون في الأديان المختلفة على سعي كهذا؟ أم سيعتبرونه تهديدًا للثوابت التي لا تنازل عنها؟

وهل توجد مشروعية فقهية ونصية للبحث في إخاء الأديان؟ وهل سيتقبل المجتمع الإسلامي تحديدًا هذه الفكرة في ظل تأييد ساحق لمبدأ نسخ الأديان كلّها بالإسلام، واستحالة وجود هدى في غير الإسلام؟ وما هي نسبة نجاح فرصة كهذه؟ وما هي التحديات؟ وفي النهاية ما الذي يمكن أن نجنيه من طرح هذه الدراسات الجدلية الصاخبة في المجتمع الإسلامي؟

وهل سيوافق التيار العقلاني عمومًا على هذا السعي الصاخب وهو يعتقد أنّ الديانات عمومًا لا تزال تحمل في مضامينها قدرًا هائلًا من التناقض مع العقل، وهل المطلوب عقد التآخي بين هذه الأديان أم الخروج من عباءتها بالكلية والدخول في المستقبل، وترك الجدل في اللاهوت للهيئات المهدّدة بالانقراض؟

وأخيرًا هل لهذا المطلب صدى في الأديان الأخرى؟ وهل يشعر الحاملون لهذه الراية بتأييد المؤسسة الدينية أم أنهم في صراع معها إلى الأبد؟

فرضيّات الحلّ

تطرح الدراسة الجواب بالإيجاب عن السؤال الأول. فالضرورة الاجتماعية تفترض حتمًا خوض هذا النزال، فلم يعد مقبولًا في عصر القرية العالمية أن تعيش الأديان منفصلة متباعدة، وبات الهمس في الكنائس مسموعًا في المساجد، ولم يعد ممكنًا من الجانب المجتمعي الاستمرار في ثقافة الكانتونات الدينية المغلقة، فلم يعد في العالم إغلاق ولا إطباق، وكل فتوى تكفير تتبعها شتائم تحقير، توفّر بالضرورة ظروفًا خطيرة للعنف الكامن، الذي ينتظر فرصة طائشة ليكرر ما ابتلينا به في العقود الأخيرة من نار العنف.

أما التيار العقلاني فهو مدعو لإدراك الأرقام الدقيقة القائمة التي يقدمها علم الإحصاء بعيدًا عن العواطف والتمنيات، وبعيدًا حتى عن قواعد المنطق، فالدراسات الأنثروبولوجية تكاد تكون متفقة على أنّ العالم مستمر في تشكله الديني، وأنه يعطي أغلبية ساحقة للمنتمين دينيًا، وأنّ هذا المشهد مستمر، مهما ارتبط الدين بالغيب والخرافة، والكهانة والعرافة، وإنّ علينا أن ندرك أن الإنسان بطبيعته كائن غير منطقي، تحكمه الغرائز والعواطف أكثر مما يحكمه خطاب العقل الحدي، وإنّ الأنبياء لم يكتبوا فلسفة عميقة ولكنهم عزفوا على أوتار صحيحة، ولذلك فإنّهم تمكّنوا من قيادة الجماهير ولا زالوا يفعلون وهم في قبورهم، ويقدّم مركز بيو للإحصاء ومركز أردا التابع لجامعة بنسلفانيا رقمًا واحدًا لنسبة المنتمين للأديان على نسبة اللادينيين، حيث يبلغ التديّن في العالم (83٪) مقابل (17٪) للموصوفين بأنّهم لا دينيين، وأنّ هذه النسبة مستقرة لخمسين عامًا قادمًا على أقل تقدير.

ومن المؤكد أنّنا نمارس ما يمارسه مؤمنون كثيرون في الأديان كلها، وستجد جهودنا سبيلًا للتكامل، وباعتقادي أنّ فرص النجاح قادمة، ولا أشك أنّ هذا اللون من الخطاب الإيجابي بين أتباع الديانات هو المستقبل، وهو السياق التراكمي الذي عوّدتنا عليه الحضارة في نجاحاتها، نقيض السياق الإنكاري الذي تمارسه حركات السقوط في الأمم البائسة.

أما في الجانب الإسلامي تحديدًا فهو مسؤولية هذه الدراسة وغايتها، وستقدم الدراسة الأدلة النصية والعقلية والمقاصدية الممكنة لتعزيز هذه الرؤية، ونرجو أن نكون موفقين في عرض ما يكفي لإقناع الجمهور الكريم بمشروعية هذا السعي النبيل وجدواه وفائدته.

ومع أنني لست متفائلًا بفرص النجاح السريعة لمبدأ إخاء الأديان ولكنني أشعر أننا سياق من الأمم، وأنّ الأمم التي حققت نجاحًا حضاريًا حققت من ثم تقدمًا جيدًا نحو إخاء الأديان، فإنّ الفائض الحضاري ينتج فائضًا أخلاقيًا، وقناعتي أنّ كل خطوة نخطوها صوب المجتمع المتحضّر الذي تسود فيه العدالة والقانون هي من ثم خطوة نحو إخاء الأديان، وما ترسمه هذا الغاية النبيلة من بناء مجتمع آمن ومستقرّ وسعيد.

وتجدر الإشارة أنّنا حين نقاوم بشدة احتكار الخلاص فليس ذلك بدافع من مسؤوليتنا في تنظيم الدار الآخرة، أو مشاركة الله في الحساب وتحديد منازل الناس فيها، فالحساب بيد الله، والخلاف في شكل الدينونة وتفاصيلها بالغ التعقيد والتفاوت بين الأديان، ومن الحماقة أن ننصب أنفسنا فيها قضاة وجلاّدين، وربما لا تكون لدى الناس قناعة أصلًا بتفاصيل العالم السماوي، ولكن ما نبحث عنه بدقة هو خطاب الكراهية الناشئ أصلًا من توعد الآخر بنار جهنّم، وتحديدًا في تصور المسلم أنّ البشرية ذاهبة إلى نار جهنم، وهو اعتقاد بالغ الأذى في تربية الجيل، حيث تتأسس التربية، هنا، على احتقار الناس وازدرائهم، وسوء الظن بالخالق الذي يخلق الناس إلى جهنّم ولا يبالي.

ويمكن القول بأنّ المجتمع الإسلامي عرف لونين من الاعتقاد في هذه المسألة:

1- رأي العامة من رجال الدين، وهو رأي الأغلبية الذين كانوا في سياق الفقهاء عمومًا، وهو أنّ الأديان قد نسخت وقد بات أتباعها مدعوين لترك أديانهم والدخول في الشريعة الخاتمة، وأنّ الله لن يقبل صرفًا ولا عدلًا من أحد من البشر ما لم يدخل في الدين الحق.

2- رأي الخاصة من أهل العرفان، وهم قلة بالنسبة للأغلبية الكاثرة. وهؤلاء يرون أنّ الحكمة والنور والنبوة التي وصلت إلى الأمم هي سبيل صحيحة لعبادة الله تعالى، وأنّ الله يتقبل من المتقين من كل أمة ومن كل دين.

ولكل من الفريقين برهانه ورجاله وأئمّته. وسنبسط القول بما يكفي لشرح وجهة نظر الفريقين، وسنبين سبب اختيارنا لمذهب أهل العرفان، والبراهين التي نسترشد بها من المنقول والمعقول.

الأدلة من القرآن الكريم:

إنّ دراسة متأنية في القرآن الكريم ستجعلك تدرك مباشرة أنّه يَنظر إلى العالم نظرته إلى الأسرة الإنسانية الواحدة، وليس تأكيده المستمر على قصة آدم وحواء إلا لترسيخ هذه الصورة، فنحن أسرة واحدة في العالم، وعلينا دومًا أن نسعى للقاء من جديد، وأن نهدم ما بناه الشر والبغي في الأرض من جدران وحدود وقطيعة، لتنعم الإنسانية بروح الأسرة الواحدة.

إنّه لمن الغريب بعد ذلك أن يكون موضوع إخاء الأديان محلّ خلاف، إذ ما جدوى أن نؤمر بالإيمان بالرسل الكرام وتصديق شرائعهم واتباع نورهم ثم لا يقودنا هذا المعنى إلى حوار وتعاون وإخاء جدّي وصادق مع أتباع هؤلاء الأنبياء؟!

وما جدوى أن نتحدّث بالتصديق والإكبار والإعجاب عن الرسل الكرام عليهم السلام وهم في عالم البرزخ، ثم نتبع هذا الثناء والإكبار بتبادل اللعن المستمر وتتابع الشحناء والبغضاء مع أتباع هؤلاء المرسلين، ولا نجادلهم ونحاورهم بالتي هي أحسن اتباعًا لمنهج القرآن الكريم؟!

وبعد هذا الاستهلال برصد الإشارات العابرة يمكننا أن ننتقل إلى بعض النصوص القرآنية المباشرة:

{ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ }.

ورد هذا النص القرآني الحكيم (14) مرة في القرآن الكريم بصيغ متقاربة، { مصدق الذي بين يديه }، { مصدقًا لما بين يديه }، { تصديق الذي بين يديه }، وقد وردت هذه التأكيدات الواضحة مرارًا لدى الإشارة إلى علاقة القرآن الكريم بالنبوات الأخرى وبالكتب السماوية المنزّلة، ومن ذلك مطلع آل عمران: { الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ }

وفي الصيغ جميعًا تذكر الكتب السماوية بغاية الإجلال والاحترام، وأنّها تصدق القرآن الكريم ويصدقها، ولم يرد أي نص في القرآن الكريم يفيد أنّ هذه الكتب قد نسخت أو بطلت أو فشلت، وإنما هي نصوص وحي إلهي يحمل مضامين تربوية عالية، وهي كالقرآن الكريم كلمة الله، ونوره وهداه، وإن كانت الإشارة قد وردت في الكتب جميعها أنها نور يهدي وليس قيدًا يأسر، وأن الأحكام تتغير بتغير الأزمان، وأن لكل أمة جعلنا شرعة ومنهاجًا.

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ }

والآية صريحة وواضحة بأنّ التوراة كتاب عظيم من الله، فيه هدى ونور، وأنّه مصدر للحكمة والنور، وأنه هدي أخذ به النبيّون والربانيون خلال التاريخ، ومن المدهش أنّ هذه الآية ختمت بالنص الذي يستخدمه الجهاديون دومًا: { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون }، وهو يعني أنّ هذه النصوص السماوية متساوية، وهي تملك دورًا متشابهًا خلال التاريخ، وعندما يحكم بها الأنبياء والربانيون فهي ملزمة لسائر الرعية، وهي قانونهم وحياتهم، ولكنها تتطوّر مع القرون، وتحتاج في كل عصر جديد لشرعة ومنهاج ينسج على منوال مقاصدها.

وفي الآية دعوة الشعب اليهودي للاحتكام إلى التوراة والعمل بمقاصدها، وهي تشتمل على القيم والفضائل، كما أنّ فيها من أحكام الشرائع التي تتجدد وتتغير بتغير الأزمان.

ومن المؤكد أنّ القرآن الكريم أشار إلى بعض محاولات من الكهنة وغيرهم لتحريف بعض نصوص الكتاب أو معانيه. ولا يمكن فهم ذلك على أنّه إلغاء لما في الكتب الأولى من هدى ونور، وإنّما هو بمنزلة التنبيه إلى المحاولات المستمرة لاستغلال النص الديني التي لا تتوقف، وقد حاول الأشرار فعل ذلك في القرآن نفسه.

{ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }

والآية صريحة بان الإنجيل كتاب الله وأنّه مصدر أحكام وإلهام، وفي تطبيق الإنجيل أيضًا نزلت الآية الكريمة { وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه }، والمقصود مقاصده وغاياته التي دعا إليها، ومن المعلوم أنّ الإنجيل ليس فيه شريعة، بل موعظة ونصيحة، ومع ذلك فقد جاء الوعيد شديدًا على الذين لا يحكمون بما أنزل الله فيه، والمقصود بطبيعة الحال المقاصد وليس الأحكام.

وفي الآية دعوة للمسيحيين للاعتصام بدينهم وتطبيق ما فيه من الفضائل التي تشترك فيها الديانات، وهو إقرار جلي بإخاء الأديان وتساويها وتكاملها وبناء بعضها على بعض.

{ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }

والآية واضحة في الثناء على طائفة من أهل الكتاب يؤمنون بأديانهم ويؤمنون بالإسلام دينًا كريمًا، ويقرؤون آيات الله التي أنزلت عليهم خاشعين لله، لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا، والآية نص في أنّ الله تعالى يثيبهم أفضل الثواب في الآخرة، أولئك لهم أجرهم عند ربهم، ومقتضى الآية الكريمة أنّ الجزاء الأخروي حق لهم، وفق ظاهر الآية { أولئك لهم أجرهم عند ربهم }.

ومن المعلوم أنّ هذه الآية نزلت على النبي ﷺ عند وفاة النجاشي، حيث كان قد أعلن إيمانه بالرسول، ولكنّه استمر في عقيدة النصارى، وحوله البطارق، ومات على المسيحية، وحين دعا الرسول الصحابة للصلاة عليه اعترض بعض الصحابة وقالوا: نُصلّي على علج من علوج الروم ليس على ديننا؟! فنزلت الآية:

{ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }

ومقتضى هذه الآية أنّ الله تعالى يستمع الدعاء والعبادة من كل من توجّه إليه بإحسان، أيًا كانت القِبلة التي يتبعها أو الديانة التي يلتزمها، حيث هو سبحانه منزه عن الجهات والمكان، وهو أقرب إلى عباده من حبل الوريد.

وقد روى الطبري عن قتادة أنّ هذه الآية نزلت في النجاشي أيضًا، فحين دعاهم الرسول للصلاة عليه وأنزلت آية آل عمران كما بينا، عاد بعض الصحابة فاعترضوا وقالوا: إنه لم يكن يستقبل قبلتنا ولا يعرف صلاتنا فأنزل الله تعالى: { ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم }.

والآية صريحة في قبول إيمان أهل الأديان، سواء كانوا من أهل القِبْلة أم من قبلة غيرها طالما عبدوا الله بإحسان وأحسنوا في عباده.

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }

يعتبر هذا النص الكريم الذي ختمت به سورة الزلزلة من أوضح ما تلقاه الناس عن الوحي المعصوم في إثبات عدالة الله تعالى، وأنّه لن يظلم الناس مثقال ذرّة من العمل

الصالح، وقد عبّرت الآية بلفظة (الناس) وهي سياق عموم لا مخصّص متّصل له، فيبقى على عمومه.

ومن اللافت أنّ الآية الكريمة وردت في سياق الحديث عن مصائر الناس في الآخرة، حين تزلزل الأرض زلزالها، وتحدّث الأرض أخبارها، ويقول الإنسان مالها، وهو مشهد يشرح اللحظة الحاسمة حيث يلقى الناس مصائرهم وجزاء ما قدموه، وعند ذلك يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم، ومن الواضح أنّ القرآن الكريم استخدم هنا الناس ولم يستخدم لفظ المؤمنين أو المسلمين، والناس لفظ عام يشمل سائر الخلق من مسلم وغير مسلم، وحين يستقرون على ضفة الحساب الفاصلة، يأتي الخبر نصًا مباشرًا واضحًا: { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }.

{ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ }

وهذه الآية الكريمة في سورة الكافرون واضحة في إقرار انتساب الآخرين إلى أديانهم، وهي أيضًا صريحة في أنّنا لا نعبد ما يعبدون وأنّهم لا يعبدون ما نعبد، ومع ذلك فهي صريحة أيضًا في أنّ لهم دينهم، وأنّ المسلم مأمور بالإحسان إلى البشر جميعًا، وأنّ المطلوب هو توفير اعتراف قانوني واجتماعي بأديان الآخرين، وقد سماه القرآن الكريم دينًا مع أنّه عبادة أصنام، وكان السياق أن يقول: لي ديني ولكم كفركم، ولكنّه أشار بوضوح إلى حقّهم في التديّن بدين آخر، طالما أنّ العلاقات بين الديانتيْن تقوم على العدل والمساواة والقانون.

{ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا }

وردت هذه الآية الكريمة في سورة النساء، وفيها اعتبار إلقاء السلام أمارة كافية لاعتبار الرجل مؤمنًا، وظاهر النص لا يشترط للإيمان الشهادتين ولا الصلاة ولا الصيام، وإنّما يشترط إلقاء السلام والعمل لأجل الإنسانية ونشر السلام.

وتشير الروايات إلى أنّ سبب نزول هذه الآية كان في رجل قتله المقداد بن الأسود في إحدى السرايا، وكان قد قال لهم: السلام عليكم، فنزلت.

واللفظ باق على عمومه، فالاسم الموصول من ألفاظ العموم الباقية على عمومها، ومعناه أننا مأمورون أن نحكم بالإيمان على من يعمل للسلام وينشر السلام ويلقي السلام.

والمعنى الظاهر للآية أنّ السلام هو قيمة روحية ومعنوية، وهو من أهم أمارات صحة الإيمان، وهذا المستوى الذي ترتفع إليه الآية الكريمة يتسامى على كل المعايير التي كانت سائدة في تلك المرحلة من التاريخ، ويؤسس لاعتراف عميق بالإيمان على أساس العمل الصالح، وبذل السلام، دون تفصيل في طبيعة الاعتقاد.

{ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }

وهذه الآية واضحة في وجوب البر والقسط مع المخالفين في الدين إذا كانوا سلميين لا يمارسون الحرب ضد المسلمين.

ولا شك في أنّ التعبير بكلمة أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم يشتمل على معنى عميق من المودّة والرحمة، فهو لا يقتصر على إقامة العدالة والمساواة والإنصاف، بل يتعدى ذلك إلى البرّ والقسط، وهي مفاهيم أخلاقية رفيعة، تتسامى على الإطار الحقوقي وتؤسس لقيم البر والود، وهو ما يكون عادة في الأسرة الواحدة وفي القرابة والرحم.

ومن المدهش أنّ هذه الآية لم تنزل في النصارى واليهود من أهل الكتاب، بل نزلت في المشركين الوثنيين من كفار قريش، ممن لم يقاتلوا ولم يظلموا المسلمين، وذلك حين قالت أسماء بنت أبي بكر لرسول الله: يا رسول الله إنّ أمي زارتني وهي مشركة أفَأَصِلها؟ فقال: «صِلِي أمك»، ونزلت هذه الآية الكريمة.

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }

وهذه الآية أصل في بناء الحوار مع أهل الكتاب على أساس الاحترام والتقدير، فقد سماهم أهل الكتاب إشارة إلى كتابهم الكريم ومكانته عند الله تعالى، ثم دعا إلى حوار في منطقة سواء، ومعنى ذلك القبول بهم كمؤمنين، ثم البحث عن المشترك بين الديانات السماوية.

ومن اللافت أنّ الآية لم تطالب بأركان الإسلام الخمسة ولا بأركان الإيمان الستة، وإنما دعت الجميع إلى منطقة وسطى مشتركة للحوار، تقوم على شرطين: الإيمان

والعدل، أن نؤمن بالله ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، وهي مطالب قريبة ويمكن لهم تلبيتها دون الخروج من دينهم، وبذلك يمكن العمل بما اتفقنا عليه والإعذار فيما اختلفنا فيه، وهو ما ابتكرت له الآية الكريمة مصطلحًا لطيفًا صار أشهر وجوه التعبير عن منصة الحوار: وهو الكلمة السواء.

{ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ [أهل الكتاب] فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ }

وهذه الآية الكريمة نص في عمل أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى عند المفسرين، وإن كنت أجد أنّ المعنى المراد أوسع وهو الأمم الواعية التي تقرأ الكتب وتحتكم إلى القانون، وتمام الآية: { لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ }.

وقد دلّت هذه الآية الكريمة على أنّ أبناء الأديان إذا ظهر إنصافهم وإيمانهم فإنّهم مشمولون برحمة الله، وأنّ أعمالهم الصالحة محفوظة عند الله تعالى، لا يظلمون ولا يظلمون، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه.

{ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }

{ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا }

وسياق الآيتين واحد، فقد نعى القرآن الكريم على طائفة من أهل الكتاب ذهبوا إلى احتكار الخلاص في دينهم، واعتبروا إيمان الآخرين باطلًا، فقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيّا، فأنزل الله تعالى هذه الآية المحكمة، ثم أعقب ذلك بقوله: { تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين }.

وواضح أنّ الله تعالى سمى احتكار الخلاص أماني وأوهامًا، وطالبهم بالبرهان في هذه الدعوى ولا برهان، وحين قال المسلمون ما قاله أهل الكتاب من قبل: لن يدخل الجنة إلا من كان مسلمًا، فإنهم وقعوا في الأماني نفسها، فنزلت الآيات في غاية الصراحة والوضوح وهي لشدة وضوحها لا تحتاج إلى تفسير ولا تأويل: { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا }.

{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا }

وفي هذه الآية بيان قرآني بالغ الأهمية بالدعوة إلى الاجتماع على ملّة إبراهيم، واعتباره أحسن الدين، واعتباره الحنيفية السمحاء، وهذه الآية لها نظائرها في القرآن الكريم، وهي كثيرة، ومنها هذه الآيات الست:

{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا }.

{ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ }.

{ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }.

{ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا }.

{ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }.

{ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ }.

ولا شك في أنّ الدعوة إلى ملّة إبراهيم والثناء على ملّة إبراهيم، وخاصة في معرض الحوار مع اليهود والنصارى يتضمن إشارة حقيقية واضحة للقاء على أصول مشتركة جامعة مع الأديان، ومن المعلوم أنّه لم يرو من شريعة إبراهيم إلاّ الإيمان وبعض الفضائل وخصال الفطرة، وهي معان تؤمن بها كل الأديان، وهذا وجه حكيم من دعوة المسلمين للبحث في الأصول المشتركة، وابتكار منصّات للحوار واللقاء تحت مظلة النبي إبراهيم

الذي هو أصل الديانات السماوية في القرآن: الإسلام والمسيحية واليهودية والصابئة، وقد أشرنا خلال الدراسة إلى أثر إبراهيم في الديانة البرهمية الهندوسية والزرادشتية واليارسانية من الديانات القائمة اليوم.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }

نزلت هذه الآية الكريمة بصيغتين متشابهتين جدًا، في سورة البقرة وفي سورة المائدة، والمقصود من تكرارها التأكيد على إحكامها، وفيها النص الواضح على قبول إيمان المسلمين والمسيحيين واليهود والصابئة، وهذه هي الديانات التي كانت معروفة آنذاك في جزيرة العرب وما حولها.

وتؤكد الآيتان بوضوح أنّ العمل الصالح الذي يؤديه أتباع هذه الديانات هو عند الله بمكان ولا يزهق منه شيء، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتقيده بالإيمان والعمل الصالح، وليس في الآية ما يشير إلى أنها تحتاج إلى تخصيص أو تقييد أو نسخ، وقد تكررت لتأكيد المعنى إياه.

والآية أصل يمكن أن تقاس عليه كل الأديان التي نتعرّف إليها في العالم، فلم تذكر البوذية والهندوسية هنا وغيرها من الديانات لأنها كانت بعيدة عن جزيرة العرب، ولم يكن العرب يعرفونها آنذاك، وقد حرر البيروني في كتابه الشهير (تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة) أنّ الهندوسية ديانة توحيد، وأنّ وعيهم بالآلهة في ديانتهم يشبه وعينا بالملائكة، وأنّها في الأصل عقيدة توحيد، ثم دخلت فيهم الشركيات.

{ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ }

وفي الآية إشارة واضحة إلى وجود نبوات ومرسَلون في كل مكان في العالم، وأنّ على المؤمن أن يتقبل وجود ديانات سماوية صادرة عن الله سبحانه، لم يستمع إليها في القرآن الكريم، وأن يسعى لبناء العلاقات الإيجابية والأخوّة الإنسانية معهم.

وقد يبدو هذا المعنى الإضافي غير وارد في الآية، ولكن من المؤكّد أنّه من مقاصدها، ولا تبرير أسبق في الذهن لذكرها في القرآن الكريم من هذا، وقد جرى الصحابة في التعامل مع الديانات الأخرى على هذا، واشتهرت كلمة عمر بن الخطاب حين قال في المجوس: وليس فيهم نص من كتاب أو سنة: سنُّوا بهم سنة أهل الكتاب.

والمعنى نفسه أيدته آيات قرآنية كريمة: { وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ }.

{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ }

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }.

{ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ }.

{ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ }.

من المؤسف أنّ كثيرًا من المفسرين أخرجوا الآية عن سياقها وقالوا: إنّ المراد هم أولئك الذين دخلوا في الإسلام، والحقيقة أنّ هذا التأويل لا وجه له، فالقرآن يثني عليهم بعبارة «إنا نصارى» ولم يقل «كنّا نصارى»، ولو كانوا قد أسلموا لقال: ذلك بأن منهم صحابة ومهاجرين وأنصارًا، ولكنه قال ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون، ثم أفاض في الثناء عليهم فقال: { وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض مما عرفوا من الحق }.

ومن الواضح في الآية أنّ القرآن ينصّ صراحة على أنهم سيثابون في الآخرة، وأنهم سيكونون في حضرة الله تعالى مأجورين مشكورين، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

وقد أورد أكثر المفسّرين سبب نزول هذه الآية في وفد النجاشي الذين جاؤوا يستطلعون أمر النبي الكريم وقد تأثروا بحديثه وكلامه وتلاوته وفاضت مدامعهم،

ولكن من المؤكد أنّهم عادوا إلى الحبشة وهم على دينهم الأول، ولم يتم تدوين أي منهم في كتب تراجم الصحابة، بل كانوا كما وصفهم الله نصارى وقسّيسين ورهبانًا.

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا }

وقد وردت هذه الآية الكريمة نصًا في أنّ الله لا يجحد العمل الصالح أيًا كان من ظهر منه، ومن الجلي أنّ الآية وردت بصيغة العموم ولم يرد عليها قيد أو مخصص، فتبقى على عمومها، وهي تشمل كلّ من قام بالعمل الصالح من البشر فإنّ الله لا يجحد عمله، ولا ينكر طاعته في الدار الآخرة.

{ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * }

وردت هذه الآية الكريمة في سورة آل عمران، في بيان الطائفة المعتدلة من أهل الكتاب التي تؤمن بما أنزل إليهم وتتلو آيات الله في كتبهم ويقومون بالعمل الصالح على وجه يعود بالخير للإنسانية.

وفي هؤلاء ورد النص صريحًا مباشرة بقول الله تعالى { وما يفعلوا من خير فلن يكفروه }، ممّا يؤكد أهليتهم واستحقاقهم لنعيم الله في الجنة جزاء على ما فعلوه من خيرات.

وقد اختار عدد من المفسرين أنّ الآية نزلت في حق من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، ولكن ظاهر النص يأباه، ولو كان كذلك لما أفردهم بقوله: { وما يفعلوا من خير فلن يكفروه }، فقد جاءت الآية كما هو واضح لتنفي التساؤل الموهوم الذي أثاره بعض المعترضين، كيف يقبل الله منهم وهم على غير دين؟! فنزلت الآية: { وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين }.

{ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }

وفي هذه الآية الدعوة الصريحة للحوار الإيجابي مع أهل الكتاب، والتأكيد على وحدة الدين على الرغم من الاختلاف الكبير بين العقيدتين، وينصّ القرآن الكريم على عبارة { وإلهنا وإلهكم واحد }، على الرغم مما ورد من نقد شديد في القرآن الكريم لعقائد أهل الكتاب، ويمكن اعتبار صيغة { وإلهنا وإلهكم واحد } عنوانًا للقاء بين الأديان، والإخاء بين أتباعها على الرغم من الخلاف العقائدي، وهو توكيد على الوحدة في المقاصد على الرغم من الاختلاف في الآليات وسبل الوصول.

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }.

وفي هذه الآية تنزيه لله سبحانه وتعالى عن العبث في الخلق، ومن المؤكد أنّ الأمم التي سعدت بالإسلام لا تزال أكثر بكثير من الذين سعدوا بالإسلام، فلو كان هؤلاء قد خلقوا للجحيم والعذاب لمجرّد أنّهم في أديان أخرى فإنّ ذلك يستلزم على الله تعالى العبث، فقد خلقهم وهو أعلم بما هم فاعلون، ولا يزال الله تعالى يخلق مليارات من البشر، وحاشاه أن يكون الخلق عبثًا أو خطأً أو ضلالًا، بل هو الخلق بحق، ولا شك في أنّه أراد لهم السعادة والخير، وله سبحانه طرق متعددة يمنحهم فيها الإيمان والنور، { وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين }.

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }.

وردت هذه الآية في سياق أمراض الأمم، وهو مرض وقع فيه النصارى واليهود، يتمثل في احتكار الحقيقة، وقد نهى القرآن الكريم صراحة عن هذا الوهم، وأشار إلى أنّ تلاوة الكتاب تقتضي غير ذلك، والآية صريحة في الدعوة إلى أن نعتقد الخير في كل الكتب السماوية ومثلها كتب العلم والأخلاق والفضائل، وأن في كل منها خيرًا ونورًا، وبيّنت الآية أنّ الذين يعتقدون أنّ الله لم يهد سواهم، وأنهم يحتكرون الحقيقة هم جاهلون أو كما وصفتهم الآية { كذلك قال الذين لا يعلمون }، ويفتئتون على الله ما

لا يعلمون، وأن واجب المؤمن هو التسليم بأنّ الحساب شأن الله، وأنّ العلاقة بين الأمم في الأرض يجب أن تقوم على العدل والإخاء والتراحم.

{ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }.

وهذه الآية في الواقع تتحدث أيضًا عن أمراض الأمم، وهو ما نسمّيه بالضبط احتكار الخلاص. فقد كان شأن الملل قبل الإسلام أن يحتكروا الحقيقة والجنّة، ويرون أنّه لا خير في المسلمين حتى يتركوا دينهم ويتبعوا ما التزمته اليهود والنصارى، وقد نعى عليهم القرآن هذا الفهم السقيم. والآية صريحة في إنكار احتكار الحقيقة والجنة، وأنّ الملة الحنيفية السمحاء يجب أن تكون على غير هذا وأن تتّسع لاختلاف المختلفين، وأن ترضى من المحسنين من كل الأمم ولو لم يتبعوا ملتنا، فالله وحده يهدي من يشاء على صراط مستقيم، وعلينا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ثم الإحسان في الخلق من كل الأمم والأديان والملل.

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ }

وهذه الآية أيضًا جاءت في سياق الحديث عن أمراض الأمم، حيث يكتفي المؤمنون بالانتساب إلى نبي كريم، ثم يمارسون التعالي على الأمم وازدراء أعمالها الصالحة، والتأكيد على أنّ الله تعالى يثيب الناس بأعمالهم وإحسانهم في الخلق وليس بانتسابهم إلى الأنبياء.

وهذا المرض عينه قد وقع فيه المسلمون أيضًا حيث يعتقدون أنّ الله لم يهد سواهم، وأنّ الخير محجوب عن الأمم حتى تلحق بنا، وأنّ الشفاعة مختصة بالأمة المحمدية، وغير ذلك من الاعتقادات التمييزية التي نعاها القرآن الكريم على الأمم الأولى.

ومن المؤسف أنّ كثيرًا من التفاسير تستفيض في تفصيل مقالات الأمم في احتكار الحقيقة والجنة والاستئثار بالله، وتشير إلى ذلك على أنه من علامات الخطأ في الاعتقاد دون أن تشير إلى أنّنا وقعنا في المرض نفسه، وبالعبارات ذاتها تقريبًا.

وبعد، فهذه نحو ثلاثين آية كريمة تناولت من جوانب متعددة مسألة إخاء الأديان، وحسن التواصل والمودّة بين المؤمنين وبين أبناء الأديان الأخرى.

وفي الحقيقة فإنّ النصوص التي تدعو إلى الإخاء بين الأديان كثيرة ومتواترة في القرآن الكريم، وهي حاضرة في كل سور القرآن تقريبًا، ولكن كيف أمكن تغييب دلالات هذه الآيات كلّها؟

أدلة السنة المباركة:

لا بد أن نشير أولًا إلى أنّ النبي الكريم كان واعيًا تمامًا برسالة إخاء الأديان، وكانت في جوهر دعوته، وقد أوردت السيرة النبوية عددًا من الإشارات اللافتة لهذا المعنى، فقد تعرّف النبي الكريم إلى الراهب بحيرا قبل الإسلام، وسمع من ورقة بن نوفل، وعُرف عن الحنفاء العرب أمية بن أبي الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل وقسّ بن ساعدة الإيادي وغيرهم، وكان يذكرهم بالثناء الحسن، وكان يذكر باستمرار شريعة إبراهيم التي أمر أن يتبعها بنص الآية: { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }.

وفي إشارة لافتة منذ مطلع الرسالة فقد ترك الرسول الكريم التوجّه إلى القبلة في مكة، وتوجّه في صلاته إلى بيت المقدس، وهو أمر أثار تساؤلات كبيرة في مكة، وكانت الغاية بطبيعة الحال التأكيد على ما بين الإسلام وأهل الكتاب من المؤاخاة والمودة والتقارب في عبادة الله، وهو ما لم يكن موجودًا بين الرسول وبين قريش، ولا شك في أنها رسالة تقارب نبيلة، وقد استمر المشهد كذلك خمسة عشر عامًا حتى نسخ القرآن القبلة الأولى، وأمر بالتوجّه إلى البيت الحرام.

وعلى الرغم من أنّ أمر القبلة على رأس الثوابت في الدين، ولكنّ الشريعة نسخته مرّتيْن في سبيل ما هو أكثر رسوخًا ومقاصدية، وهو بناء إخاء حقيقي بين أتباع الأديان.

كما أنّ سيرة الرسول الكريم رسّخت بناء علاقات إيجابية مع النجاشي والمقوقس، وكلاهما ملك نصراني، فقد استقبل النجاشي الصحابة الكرام ووفّر لهم الحماية والأمن، وعاش الصحابة في كنفه أربعة عشر عامًا، وهو يدين بالمسيحية ومن حوله بطارقته

وكهنته، ولكنه كان يبادل الرسول الكريم المودة والثقة والتراحم، وفيه نزلت آيات كثيرة تأكيدًا على الإخاء المطلوب بين الأديان، ومنها هذه الآيات الكريمة[1]:

{ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ }

وفي الآيات تصريح واضح بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، وتصريح واضح بأنهم المسلمون والمؤمنون، مع أنهم لم يتركوا دينهم الذي كانوا عليه، ولم يقيموا الصلاة، ولم يؤتوا الزكاة، ولم يحجّوا البيت.

وقد أوردنا قبل قليل ما نزل في النجاشي عند موته من آيات كريمة[2]، نصّت على أنّه يدخل الجنة ويؤتى أجره فيها، مع أنّ الرجل مات على دينه الأول وكان يصلّي إلى بيت المقدس، وإن ظهر منه الإقرار والوفاء والمحبة للرسول والرسالة.

أمّا المقوقس، فقد راسله النبي الكريم وأوفد له حاطب بن أبي بلتعة، وكان من نتيجة الحوار تبادل الهدايا بينه وبين رسول الله، وقد قبل رسول الله هديته مارية القبطية وأعتقها وتزوّجها، ولقد كان هذا الود حريًا أن يستمر ويدوم، ولكن المقوقس كان في واقع صعب، وكان الصراع بين المسيحيين الملكانيين والقبط يلزم الرجل أن يتريث في بناء علاقات إيجابية مستمرة.

وكذلك فقد أسس الرسول الكريم علاقات طيبة مع سكان المدينة من اليهود، وهي القبائل الثلاث عشرة التي ورد ذكرها في وثيقة المدينة[3]، ولكن وقع للأسف خلاف سياسي خطير مع ثلاث قبائل منها وهي قينقاع أولًا والنضير ثانيًا وقريظة ثالثًا، أما القبائل العشر الباقية فقد ظلت العلاقة جيدة، واستمرت إيجابية وبنّاءة إلى وفاة

(1) الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، ج19، ص593.
(2) انظر سائر التفاسير سورة آل عمران الآية 199، الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن ج7، ص497.
(3) السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف، ج4، ص242.

الرسول الكريم، حيث مات ودرعه مرهونة عند يهودي، وهو دليل واضح على التعاون التجاري والاجتماعي مع اليهود في المدينة.

وأمّا نصارى نجران فقد وفدوا على الرسول الكريم وحاورهم وناجاهم ودعاهم للمباهلة فأبوا، وقد أقاموا في مسجد الرسول أربعة عشر يومًا وهم يؤكدون التزامهم بدينهم الأول، ولم يتحوّلوا إلى شيء من الإسلام. وهناك رواية بالغة الأهمية في { إنسان العيون } لابن برهان الدين الحلبي أن القوم أرادوا الصلاة فمنعهم الصحابة، ولكن الرسول الكريم نهاهم عن ذلك، وأشار لهم بيده إلى جهة المشرق حيث يصلون، وهو دليل أنّهم كانوا من النصارى النساطرة الذين يصلون صوب الشرق[1]، وفي صلاتهم بالمسجد النبوي موقف متقدّم في إخاء الأديان، واعتراف بأكثر من سبيل للإيمان، وهذا المعنى ليس بعيدًا من جوهر الوثيقة التي كتبها الرسول الكريم لنصارى نجران عقب انتهاء إقامتهم بالمدينة وعودتهم إلى نجران، وهي واضحة في إقرارهم بدينهم واعتقادهم، واحترام أساقفتهم ورهبانهم وحماية ممتلكاتهم، وفيها :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا كَتَبَ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ لِنَجْرَانَ

لِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَأَنْ لَا يُغَيِّرُوا مِمَّا كَانُوا عليه وَلَا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلَا مِلَّتِهِمْ، وَلَا يغيّر أسقف من أسقفيته وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلَا وَاقِهٌ مِنْ وُقَيْهَاهُ وكلّ ما تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ دِنْيَةٌ وَلَا دَمُ جَاهِلِيَّةٍ، وَلَا يُحْشَرُونَ وَلَا يُعْشَرُونَ وَلَا يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ، وَمَنْ سَأَلَ فِيهِمْ حَقًّا فَبَيْنَهُمُ النِّصْفُ غَيْرَ ظَالِمِينَ وَلَا مَظْلُومِينَ...

وَعَلَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ جِوَارُ اللهِ عَزَّ وجل وذمة مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ أَبَدًا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا فِيمَا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُثْقَلِينَ بِظُلْمٍ.

شَهِدَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَغَيْلَانُ بْنُ عَمْرٍو، وَمَالِكُ بْنُ عَوْفٍ مِنْ بَنِي نَصْرٍ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيُّ، وَالْمُغِيرَةُ[2].

(1) البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، ج5، ص382.
(2) القصة موجودة بتفاصيلها في سائر كتب السير، والنص بلفظه من: السيرة النبوية لابن هشام، ودلائل النبوة للبيهقي، وزاد المعاد لابن القيم، والسيرة النبوية لابن كثير، وكتاب الأموال لابن زنجويه، وما بين قوسين انفرد به البيهقي، وتجد ذلك في كتبهم في أخبار السنة التاسعة للهجرة.
ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد، ج3، ص550، والنص أيضًا في سيرة ابن هشام.

والصحيفة وثيقة هامة يلزم منها بطلان الدعوى المزعومة أنّ النبي أمر بإخراج النصارى من جزيرة العرب. فهذا إقرار لهم بالبقاء حماية حقوقهم وكنائسهم ورهبانهم وأساقفتهم، وهو عهد وعقد، وليس شريعة من جانب واحد حتّى يعرض لها النسخ والقيد، بل عقد مع القوم لا يحل التحوّل عنه إلّا برضاهم وإذنهم، وما كان رسول الله غادرًا ولا لئيمًا، ولا يتصور أن يكتب لهم هذا باليمين ثم يأمر الصحابة بعد ذلك أن ينزعوه باليسار، وقد أجمع الفقهاء وكتاب السير أنّ نصارى نجران لم يخرجوا من بلدهم في عهد الرسول، بل في عصور متطاولة بعده، ويشير بعضهم إلى أنّه قرار عمر بن الخطاب وهو ما نستبعده لأسباب منهاجية سنأتي على شرحها بعد قليل.

ولا شك في أنّ عبارة الوثيقة تتجاوز كثيرًا مبدأ التعامل الإيجابي إلى موقف الإقرار الديني باحترام ما يعبدون وحمايتهم وحماية كنائسهم، وهو موقف لا يمكن أن يصدر عن عقيدة أشعرية أو واسطية ترى الأديان كلّها ركامًا من ضلال، وتوجب الجد والسعي في إبطالها والإساءة إليها، وتجعل من أركان الدين الثابتة عقيدة الولاء والبراء.

وإضافة إلى هذه الإشارات الواضحة في إقرار مبدأ إخاء الأديان في السنة النبوية، فبإمكاننا أيضًا أن نسترشد ببعض النصوص من السنّة:

«نحن معاشر الأنبياء أبناء علات أبونا واحد وأمهاتنا شتى»[1].

«أنا أولى الناس بعيسى بن مريم هو أخي وليس بيني وبينه نبي»[2].

«من آذى ذميًا فقد آذاني»[3].

«مَن ظلم معاهدًا، أو انتقصه حقًا، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة[4]».

«الخلق كلهم عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله[5]».

(1) رواه الإمام مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ج4، ص337.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) لم أجد لهذا الحديث أصلاً في كتب السنة، ونرجح أن اشتهاره على الألسنة إنما هو رواية بالمعنى للحديث التالي.
(4) السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، ج3، ص170.
(5) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ج10، ص86.

الدليل من الإجماع:

والإجماع عند الأصوليين هو: اتفاق المجتهدين من هذه الأمّة في عصر على أمر[1]. والمشهور على حكم شرعي.

فهو بذلك يشترط اتفاق المجتهدين في عصر من العصور، ومعنى ذلك أنّ الحكم الصادر عن الإجماع يلزم عصره ولا ينسحب على كل العصور، أو بتعبير الفقهاء الإجماع ينسخ بمثله.

ولكن الفهم الحرفي لمنطق الإجماع مستحيل التحقق، بل جزم ابن حزم أنه لا يمكن أن يتحقّق إلا في عصر الصحابة قبل انتشارهم في الأمصار، ولذلك فقد تحول الفقهاء إلى صيغ أقلّ شمولية وذهب معظم الفقهاء إلى أنّ الأغلبية تقوم مقام الجميع، وأنّ اجتماع الناس على أمر في مصر يلزمهم ولا يلزم كل الأمصار، وفي هذا السياق اشتهر إجماع أهل المدينة وإجماع العترة وإجماع الفقهاء وإجماع المفسرين.

ويمكن صياغة الإجماع بمفهوم زماننا: هو اتفاق الهيئة التشريعية التي فوّضت بالحل والعقد من وليّ الأمر الذي انعقدت له بيعة صحيحة في بلد من البلدان الإسلامية بالنظر في مصالح الأمّة، ووضع النصوص التشريعية اللازمة لمصالحها بما يحقق مقاصد الكتاب والسُّنّة.

ووفق هذه الصيغة فإنّ إخاء الأديان متحقّق في (52) دولة إسلامية من أصل (57) حيث تنص الدساتير التي وضعتها الهيئات التشريعية، وصوّت عليها الجمهور في معظم الدول الإسلامية أنّ الدولة المسلمة مكلّفة بحماية الأديان وتوفير حاجات أتباعها من الكنائس والمعابد، وأنّه لا يجوز التفريق بين الناس بناء على أديانهم وأعراقهم وقوميّاتهم. وباتت هذه المواد منصوصًا عليها بصريح العبارة في كل دساتير العالم الإسلامي باستثناء السعودية وإيران فيما تفرض الصومال واليمن وموريتانيا بعض المواد التمييزية ضد الأديان.

إنّ إجماع الهيئات التشريعية في (53) بلدًا إسلاميًا على المساواة بين الأديان، واحترام ما اختاره الناس لأنفسهم من دين هو الشكل المنطقي لدليل الإجماع في العصر الحديث.

---

(1) الأصفهاني، أبو الثناء محمد بن عبد الرحمن، بيان المختصر شرح ابن الحاجب، ج1، ص521.

وهل تشتمل هذه الهيئات التشريعية على الفقهاء الموثوقين؟ والجواب بطبيعة الحال الإيجاب في معظم هذه الحالات، فهؤلاء المكلّفون بكتابة التشريعات هم في العادة أعلى الناس تحصيلًا علميًا في الفقه والقانون، ولا يسيء إلى الإجماع في شيء وجود أهل اختصاص في الاجتماع والقانون الدولي، بل هو شرط نجاحه وتحقق بصيرته، وكذلك وجود بعض المسيحيين أو العلمانيّين فهي خبرات تستأنس بها اللجان التشريعية في كل مكان، وكذلك كان التاريخ الإسلامي، وقد كان من روائع الحضارة الإسلامية مشاركة أهل الأديان فيها، وقد استعان الخلفاء دومًا بخبرات كبيرة من المسيحيين واليهود والصابئة في الخلافة العباسية بوجه خاص.

إنّ المشكلة التي نواجهها دومًا أنّ التعبير بالمجتهدين ينصرف دومًا في الذهنية العامة إلى رجال الدين، من الأئمة والواعظين، ولكن هؤلاء على سلامة مقاصدهم لا يمكنهم أن ينشؤوا التشريعات المتينة التي تحكم علاقة الأفراد بالدولة والدولة بمحيطها، وهي قائمة أساسًا على العقود المبرمة في ظل القانون الدولي، وقد أمرنا بالوفاء بالعقود، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلاّ فيمن درس الفقه والقوانين الحديثة، وأجرى المقارنات الوافية، وهو شأن الفقهاء الراسخين في الشريعة والقانون، بغض النظر عن كونهم رجال دين واعظين، بل الشرط فيهم أن يكونوا من أهل الاستقامة، وهو ما تؤكده اللوائح دومًا في اختيار هذه الهيئات من سلامة السِّجِلّ العدلي وتحقّق الكفاءة والنزاهة، وتوفّر قدرًا كبيرًا من الثقافة الرفيعة.

الدليل من القياس:

ومع أنّ الاستدلال بالقياس لا يكون إلاّ في غياب النص، والنص موجود وفيه تفاصيل أهل الكتاب، ولكننا بحاجة للقياس فيما يتصل بحكم الأمم التي لم تذكر في القرآن الكريم، وهذا بالضبط ما فعله الصحابة الكرام عند الحديث عن المجوس، حيث قال عمر بن الخطاب: سُنّوا بهم سُنّة أهل الكتاب[1].

(1) المشهور أنها من كلام عمر، ولكن الإمام مالك نقل في الموطأ، وكذلك الشافعي في مسنده أنّ الحديث مرفوع من رواية عبد الرحمن بن عوف أنه قال: أشهد لسمعت رسول الله يقول: سنّوا بهم سُنّة أهل الكتاب. مالك بن أنس، الموطأ، ج1، ص289.

وقناعتي أنّ ما ذهب إليه عمر بن الخطاب في الحكم على المجوس، هو المنهج نفسه في الحكم على الهندوس والبوذيين وغيرهم من أهل الأديان، الذين ينبغي أن نسنّ فيهم سُنّة أهل الكتاب، وقد قال الله فيهم: { ورسلًا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلًا لم نقصصهم عليك }.

وهكذا فنحن نلحق فرعًا بأصله لعلّة جامعة بين الفرع والأصل.

وأهل الكتاب مصطلح قرآني حضاري، يمنح غاية الاحترام للآخر المختلف دينيًا، فينسبهم إلى كتاب صادر عن الله، ويحترم ما لديه من علم وحكمة، ويدعوهم بصريح العبارة للحكم بما أنزل الله فيه: { وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }، ويخبر كذلك عن التوراة: { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ }.

كذلك فإنّ آية: { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ }، قد نزلت في الوثنيين المسالمين اتفاقًا[1]، وهي أصل يقاس عليه كل وثني وكل لا ديني وكل ملحد اختار لنفسه اعتقادًا ولم يقاتلنا في الدين ولم يخرجنا من ديارنا، وهذا ينطبق اليوم على كل أمم الأرض، من شعوب نبيلة كريمة أيًا كانت أديانها، إلاّ الأنظمة الظالمة المستبدة التي تشرد شعوبها وتطردهم من أرضهم وفق بيان القرآن الكريم.

ويتعيّن في البشرية كلها مهما كانت ديانتها أن تعامل بالبر والقسط، وهما مصطلحان يكفيان لقبول كل مواثيق الأمم المتحدة الداعية إلى وقف التمييز بسبب الأديان، وتوجب دخول الأمة الإسلامية في عقد حقوق الإنسان الذي ينص على حق كل إنسان في اختيار دينه ومعتقده بحرية تامة، وهو مضمون الآية أيضًا: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }.

الدليل من الاستحسان:

ويستدل السادة الحنفية بالاستحسان مصدرًا رئيسًا من مصادر الشريعة.

---

(1) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، ج22، ص 572، وسائر التفاسير ذكرت ذلك وهي أنّها نزلت في الوثنيين من قريش ممن لم يحارب معها، انظر تفسير الآية 8 في سورة الممتحنة.

والاستحسان هو ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس[1]، أو هو العدول عن قياس جليّ إلى قياس خفي لحكمة يراها المجتهد[2]. وفي تعبير أكثر واقعية، فالاستحسان هو دليل ينقدح في عقل المجتهد يعسر التعبير عنه[3].

ولا شك في أنه سينتج عن الاستحسان ترك كثير من ظاهر النص في الكتاب والسُّنّة، والناس يعتبرون ذلك كبيرة فاحشة، والحقيقة أنّها سياق طبيعي للوعي بمقاصد الشريعة وقد مارسه سائر الفقهاء بدون استثناء، فلا يوجد عالم إلا وقد خالف من كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام أدلة كثيرة، ولكن لمعارض راجح عليها عند مخالفها [4].

ويتعيّن الذهاب إلى الاستحسان في تأويل النصوص التي وردت بوجوب القطيعة مع الأديان وبغض أتباعها، وهي نصوص وردت في سياقات خاصة، في غياب قانون دولي ومعاهدات محمية، وقد انتهى ذلك مع الزمن حيث باتت الدول الإسلامية اليوم تلتزم بمعاهدات واضحة وصريحة لجهة حماية الأديان، وتوفير حقوقها وحقوق أهلها في العيش الكريم.

والاستحسان الذي هو ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس، أو بتعبير أوضح ترك حكم النص لمصلحة راجحة، واضح في وجوب التحول إلى بناء علاقات إيجابية مع أهل الأديان، لما في ذلك من مصلحة أكيدة للأمّة، ولما يقتضيه العقل والعدل من التعامل مع الناس بالمساواة والعدل، وخاصّة بعد أن توقّفت الحروب الدينية التي كانت تفرض موقفًا تربّصيًا من الأمم بعضها ببعض.

ووفق التعريف الشائع للاستحسان بالعدول عن القياس الجلي إلى القياس الخفي، فإنّ القياس الجليّ هو قياس الهندوسية والبوذية على الوثنية القرشية بجامع العلة المشتركة بينهما، وهي عبادة الأصنام، وهذا هو القياس الجلي، ولكن اختلاف الظروف التقديرية يُحْوِجُك إلى الأخذ بالقياس الخفي، وهو القياس على أهل الكتاب وما ورد في حسن التعامل معهم وتبادل الثقافة والحكمة معهم، وهذا هو القياس الخفي، وأمّا العلة

(1) السرخسي، شمس الأئمة، محمد بن أحمد، المبسوط، ج10، ص145.
(2) الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ج2، ص181.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) الرجراجي، الحسين بن علي، رفع النقاب عن تنقيح الشهاب، ج6، ص2017م

التي رجحت هذا العدول فهي ظاهرة، وهي أنّ هذه الشعوب هي اليوم مئات الملايين من البشر، ولهم مصالح مؤكدة مع المسلمين، ولم يجاهروا بالعداوة للمسلمين، وتنصّ قوانينهم على احترام المسلمين، ومنحهم الحق في بناء معابدهم والإشراف عليها والدعوة إلى الدين الإسلامي، وهذا كله يجري اليوم في الهند والصين، حيث يعيش أزيد من أربعمئة مليون مسلم، ويقيمون الصلاة في أكثر من نصف مليون مسجد تحميهم القوانين ... فهذه الأسباب كلها موجبة للعدول عن القياس الجلي إلى القياس الخفي، وبناء أفضل العلاقات بين المسلمين والهندوس والبوذية على الأساس الذي بنيت عليه علاقات المسلمين مع أهل الكتاب.

الدليل من المصالح المرسلة:

تقوم المصالح المرسلة عند الإمام مالك على حق الأمّة في التشريع في المسائل التي لم يرد فيها دليل حاضر ولا دليل آمر، ذلك أنّ المصالح في الإسلام ثلاثة مصالح معتبرة ومصالح ملغاة ومصالح مرسلة، فالمعتبرة ما أمر بها النص والملغاة ما نهى عنها النص والمرسلة ما سكت فيها النص.

والمصالح المرسلة هي منفعة لم يشهد الشرع لاعتبارها ولا لإلغائها بدليل خاص[1].

ومن المؤكد أنّ النص قرآنًا وسُنّة قد سكت تمامًا فيما يخص الأديان إلاّ ما كان في جزيرة العرب من النسطورية المسيحية واليهودية، وليس في القرآن ولا في السُّنّة شيء من أمر الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية والبوذية والهندوسية والسيخية وغيرها من الأديان، وقد وردت نصوص عامة في أنّ الأنبياء بعثوا في كل أمة، وإنّ ما من أمّة إلاّ خلا فيها نذير، وأنّ الله لم يقصّ علينا كل أخبار الرسل ومنهم من لم نقصص عليك، وهكذا فإنّ الفقيه المجتهد يمكنه النظر في بناء الإخاء والعلاقات الاجتماعية مع الأديان المذكورة على أنّها رسالات لرسل لم يقص الله علينا أخبارهم، والمدار في الحكم عليها هو المصلحة المرسلة.

(1) الجيزاني، محمد حسين، سنّة الترك ودلالاتها في الأحكام الشرعية.

على أنّ النص الوارد في الكتاب والسنّة بشأن اليهود والنصارى قد منحهم مكان أهل الكتاب، وهو مكان مميّز يختلف تمامًا عن مكان الوثنيين من عابدي الأصنام، ووفق هذه القراءات فقد اختلفت الأحكام اختلافًا بيّنًا بين منظومة أهل الكتاب ومنظومة المشركين.

ولا شك في أنّ المصلحة المرسلة في هذا الباب تتطلّب النظر بشكل عملي في مصالح الأمة الحقيقية المعتبرة في التعامل مع الأديان، وهل مصلحة الأمّة الحقيقة في التمييز بين الأديان، وإنصاف أهل الإسلام واضطهاد أهل الأديان، ولا يخفى على عاقل أنّ اضطهاد أهل الأديان مناف لعدالة الله وللقانون الدولي، وسيؤدي إلى إلحاق أذى كبير بمصالح الأمّة الحقيقة ماديًا ومعنويًا.

والاضطهاد هنا لا يراد به قتلهم أو ضربهم أو إهانتهم، بل مجرّد التمييز ضدهم، ودفعهم للجزية عن يد وهم صاغرون، فهو اضطهاد وكذلك إهانة كتبهم واعتقادهم ومنعهم من إقامة شعائرهم الدينية بكل راحة وطمأنينة.

إنّ أي قراءة في مصالح الأمة المرسلة تلزم الأمة بتوقيع الاتفاقيات الدولية الداعية إلى حماية أبناء الأديان، وتوفير الحرية الدينية لجميع الناس، وبذلك تبقى الأمة الإسلامية في كنف الأسرة الدولية، ولا تحجب عن رعاياها حقوق المسلمين الناشئة من تبادل المصالح والمنافع مع المجتمع الدولي، وتوفير الحاجة والأمن للمجتمع برمّته.

الدليل من سدّ الذرائع:

ويعتبر سدّ الذرائع أحد المصادر الرئيسية في الفقه الإسلامي لتشريع الأحكام، وقد أخذ به بشكل خاص الإمام أحمد بن حنبل.

وقد عرّفه الإمام ابن القيم: وباب سد الذرائع أحد أرباع التكليف، فإنّه (أي التكليف) أمر ونهي، والأمر نوعان: أحدهما: مقصود لنفسه، والثاني: وسيلة إلى المقصود، والنهي نوعان: أحدهما: ما يكون المنهيّ عنه مفسدة في نفسه، والثاني: ما يكون وسيلة إلى المفسدة، فصار سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين[1].

(1) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقّعين، ج3، ص159.

وسدّ الذرائع هو إغلاق ما ظاهره مباح خشية الوقوع في محظور، وها هنا تنطبق المسألة سياقًا وسباقًا، فإنكار حق أبناء الديانات في التديّن وبناء المعابد والامتناع عن التوقيع على معاهدات حقوق الإنسان سيوفر ذريعة كاملة للإساءة إلى الأمة الإسلامية برمتها، ومعاملتها معاملة الأمم المارقة، وتحريض تلك الأمم على منع المسلمين من ممارسة شعائرهم في البلاد غير الإسلامية، والتضييق عليهم وفق مبدأ المعاملة بالمثل.

وسيؤدي ذلك من جانب آخر إلى تعثر سير البلاد في طريق النهضة والتعاون مع المجتمع الدولي، ويعلم الخبراء الاقتصاديون كم سيكلف الأمة الإسلامية هذا العناء الكبير، الذي هو في الأصل موقف يتناقض تناقضًا تامًا مع عدالة الله وقسطه ورحمته.

كما أن المواقف التي تبنّتها الدول المتشددة حيال الديانات من منع بناء الكنائس والتضييق على غير المسلمين أدت إلى نتائج عكسية تمامًا، حيث زرعت الشكوك باستمرار لدى الناشئة من غياب العدالة في جوهر الدين، وإكراه الناس على الإيمان، وهو ما أدى إلى الحيرة والشكوك، ومن جانب آخر فإنّ القمع كان ذريعة لاشتداد الحرب ضد المسلمين واتهامهم بالظلم والتمييز.

وكما نستدل بسد الذرائع لدرء الأذى عن المسلمين فإنّنا نستدل بفتح الذرائع لجلب الخير للمسلمين، حيث بات من المؤكد أنّ إقدام الأمة على تحقيق مزيد من الانفتاح، وتشريع القوانين المتسامحة والمتراحمة، واستقبال الجاليات من الأمم بإنصاف وعدالة سيفتح بابًا نافعًا للأمة، وسيعود على نهوضها وازدهارها بأفضل النتائج، وهو الحال الذي أفادت منه الدول الإسلامية المنفتحة، حيث صارت محلًا لازدهار الاقتصاد والتبادل التجاري والثقافي والأكاديمي، وهذا كلّه مصلحة حقيقية للأمة.

الدليل من الاستصحاب:

وقد أخذ الإمام الشافعي بالاستصحاب دليلًا، ومعناه بقاء ما كان على ما كان، فما انقطع الحكم فيه لزم استصحاب الأصل فيه.

ويظهر الاستدلال بالاستصحاب حين يتأكد أنّ الأمم الحديثة كلّها غير مذكورة في الكتاب والسُّنّة، وأن لا وجه لقياس ظاهر النصّ في أمم آفلة على أمم وافدة، فهو قياس

مع الفارق، وهو قياس غير مستقيم، وهاهنا يتعين استصحاب الحكم الأصلي، وهو براءة الذمّة، وهو هنا محلّ نزاع.

فالحكم في الأصل على تكفير الوثنيين والمشركين، والقياس وجوب بغضهم وقتالهم، كما أنّ الحكم في الأصل هو براءة ذمّة الناس، وهو أصل لا ينتقض إلا ببرهان، والحق أنّ الأمر يحتمل استصحاب كل من الأصلين، ولكن يتعين اختيار أحدهما لمنع إقرار الشيء ونقيضه، وها هنا فإنّه يتعيّن علينا الأخذ ببراءة الذمة استصحابًا حيث لا يستقيم القياس مع الفارق على الوثنيين، والفارق هنا هو أنّ الوثنيّين في قريش حاربوا الإسلام، وهموا بقتل النبي، ومنعوا إسلام أحد من أهل مكة وغلبوهم على أمرهم، فيما تقوم هذه الدول اليوم باستقبال المسلمين، والإذن بفتح المساجد المدارس الدينية، وتمكين الناس من عباداتهم وشعائرهم، وعليه فإنّ استصحاب الحكم ببراءة الذمة أولى من استصحاب الحكم ببغض المشركين.

ويتعين هنا أن يكون النظر في العلاقات مع هذه الأمم قائمًا على تقدير العدل والقسط، واستصحاب الأصل المنصوص عليه في القرآن الكريم من سلامة الفطرة، واستقرار روح الله تعالى في الإنسان استصحابًا لما ورد في النص العزيز من وجود روح الله تعالى في الإنسان وانبثاقه عن فطرته، وهو ما تؤكّده آيات كثيرة في القرآن، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وبناء عليه فإن شأن المسلم أن يحترم كل ذات نفخ فيها الرحمن من روحه، وفي هذا المعنى يقول ابن عربي: ولن تبلغ من الدين شيئًا حتى توقر جميع الخلائق.

ورغم ما نقدمه من أدلة وفق قواعد الأصوليين فإن عموم الفقهاء ورجال الدين تاريخيًا قدموا رؤية رافضة لإخاء الأديان، وليس من الصواب البحث في خياراتهم عن إخاء الأديان، وإن كان بالإمكان الحصول على نصوص وفتاوى في التعايش الديني والاجتماعي.

ولكن القرون الأخيرة دفعت الفقهاء إلى اختيارات واقعية في إخاء الأديان، وظهر الفقيه المتمرس بحقوق الإنسان، والتعارف بين الأمم والشعوب، وقد نجح هؤلاء الفقهاء في تقديم رؤية مختلفة للآخر في الإسلام، تتضمن على الأقل تحقيق مساواة

الأديان في السياق التشريعي والحقوقي، وحين عهد لهؤلاء الفقهاء بكتابة الدساتير والقوانين نجحوا في تسطيرها في دساتير الدول الإسلامية الحديثة وقوانينها، ولا تجد دستورًا معتمدًا لدولة مسلمة إلا وفي اللجنة التي أعدته أعلام من الفقهاء الراسخين، والأمر نفسه في القوانين المدنية والجزائية والشخصية، وهؤلاء ينجزون نصوصًا تشريعية حديثة ومتقدمة قائمة على المساواة بين أتباع الأديان، ومنع احتقار أتباعها أو نصوصها أو مقدساتها، وهذا كله مخالف للسياق الذي كتب به الفقهاء في التاريخ الإسلامي قبل قيام الدولة الحديثة.

ويمكن القول بأن فلاسفة الإسلام تحدثوا بشكل غير مباشر عن إخاء الأديان، ويمكن رصد ما كتبه ابن سينا في النجاة والفارابي في آراء أهل المدينة الفاضلة، وكذلك ابن باجة وابن طفيل وابن رشد والبيروني، وقد جمعنا ذلك في كتاب مستقل بعنوان أعلام التنوير في الفكر الإسلامي.

ومع ذلك فإن عددًا من الفقهاء تحدثوا بإيجابية لافتة عن إخاء الأديان، ونذكر منهم

ابن رشد (ت 525 هـ):

ويمكن أن نشير هنا إلى الإمام ابن رشد، الذي ذكرناه في الفلاسفة، ويؤكد ابن رشد أن عالم الآخرة هو عالم روحي، وأن الأرواح هي التي تعذب أو تنعم، ولكنه لا يرى بأسًا في التشبيه الجسدي للبعث، لأنه يفيد الناس، ويحثهم على الفضائل، وبذلك فإن العلاقة مع أهل الأديان لا ينبغي ان تقوم على الكراهية، وأن مشهد الآخرة ليس تعظيمًا للمؤمن وتحقيرًا لسواه، بل هي دار عدل وسعادة، والجميع من رحمة الله بمكان، وهو في الواقع من أهم الفقهاء وأشهرهم وأعلاهم منزلة[1].

ابن عادل الحنبلي (ت 880هـ):

ونشير إلى موقف مهم لابن عادل الفقيه الحنبلي الكبير وصاحب اللباب في علوم الكتاب، وذلك في سياق تأويله لآية البقرة: ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، فقال:

(1) انظر المبحث الخاص عن الإمام ابن رشد في هذا الكتاب في فصل إخاء الأديان في التراث الإسلامي

قال قَتَادة: إن النبي عليه السلام قال: «إِنَّ أَخَاكُمُ النَّجَاشِيَّ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ» ، فقالوا: نصلي على رجل ليس بمسلم فنزل قوله تعالى: { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَمَن يُؤْمِنُ بالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للَّهِ } [آل عمران: 199] فقالوا: إنه كان لا يصلي إلى القِبْلَة، فأنزل الله تعالى: { وَللَّهِ المشرق والمغرب فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله } ومعناه أن الجهات التي يصلي إليها أهل الملل من شرق وغرب، وما بينهما كلها لي، فمتى وجّه وجهه نحو شيء منها بأمر يريدني، ويبتغي طاعتي وجدني هناك أي وجد ثوابي.[1]

العنبري (ت 168هـ):

عبيد الله بن الحسن العنبري قاضي البصرة للخليفة المهدي ت 168، وقد اشتهر القول عن العنبري بأنه يرى الأجر والثواب لكل مجتهد في البحث عن الحق، واشتهرت عبارته في إعذار مثبتي القدر ومنكريه من المعتزلة والظاهرية فقال هؤلاء قد عظموه وهؤلاء قد نزهوه، ولكن الجويني والسبكي نقلا عنه أنه كان يقول بإعذار كل مجتهد مهما انتهى اجتهاده، سواء اهتدى إلى الإسلام أو إلى سواه، ونقل القرافي كلمته كل مجتهد في الأصول مصيب، وليس فيها حق متعين[2].

وينقل الشاطبي في الاعتصام موقف العنبري فيقول: وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ الْعَنْبَرِيُّ كَانَ مِنْ ثِقَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَمِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ الْعَارِفِينَ بِالسُّنَّةِ، إِلَّا أَنَّ النَّاسَ رَمَوْهُ بِالْبِدْعَةِ بِسَبَبِ قَوْلٍ حُكِيَ عَنْهُ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ بِأَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ مُصِيبٌ، حَتَّى كَفَّرَهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ وَغَيْرُهُ[3].

وَحَكَى الْقُتَيْبِيُّ عَنْهُ :كَانَ يَقُولُ: « إِنَّ الْقُرْآنَ يَدُلُّ عَلَى الِاخْتِلَافِ، فَالْقَوْلُ بِالْقَدَرِ صَحِيحٌ وَلَهُ أَصْلٌ فِي الْكِتَابِ، وَالْقَوْلُ بِالْإِجْبَارِ صَحِيحٌ وَلَهُ أَصْلٌ فِي الْكِتَابِ، وَمَنْ قَالَ بِهَذَا فَهُوَ مُصِيبٌ، لِأَنَّ الْآيَةَ الْوَاحِدَةَ رُبَّمَا دَلَّتْ عَلَى وَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.[4]

(1) ابن عادل الحنبلي، عمر بن علي، اللباب في علوم الكتاب، ج2 ص413
(2) القرافي، أحمد بن إدريس، نفائس الأصول في شرح المحصول، ج9 ص 375 دار الطباعة الفنية 1973
(3) الشاطبي ، إبراهيم بن موسى، الاعتصام، ج 1 ص255
(4) المصدر نفسه والصفحة نفسها

قَال «وَكَذَٰلِكَ الْقَوْلُ فِي الْأَسْمَاءِ، فَكَلُّ مَنْ سَمَّى الزَّانِيَ مُؤْمِنًا، فَقَدْ أَصَابَ، وَمَنْ سَمَّاهُ كَافِرًا; فَقَدْ أَصَابَ، وَمَنْ قَالَ هُوَ فَاسِقٌ وَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ فَقَدْ أَصَابَ، وَمَنْ قَالَ هُوَ كَافِرٌ وَلَيْسَ بِمُشْرِكٍ; فَقَدْ أَصَابَ; لِأَنَّ الْقُرْآنَ يَدُلُّ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْمَعَانِي[1]."

وموقف العنبري في الحقيقة ومثله موقف الجاحظ أيضًا هو تطوير لموقف الأصوليين في الاعتقاد، كما حكاه عنهم الغزالي في فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة حيث نقل إعذار الكافر إذا بذل مجهوده ولم يهتد للحق.[2] ولكن الغزالي بالطبع لم يقصد ما وصل إليه العنبري ولم يقره وشكك في الرواية عنه، مع أنه شاركه القول في أن من لم تبلغه الدعوة من النصارى واليهود على وجه تقوم به الحجة فهو معذور.[3]

ولكن هذا الموقف المتسامح للعنبري وحتى الغزالي حظي بهجوم عنيف من عدد من الفقهاء ومن أشدهم ابن تيمية، وقد سبقه كذلك القاضي عياض فهاجم العنبري وكفره بشدة وألحق بمقولته أيضًا: داود بن علي الأصفهاني والغزالي نفسه فقال:

ذَهَبَ الْعَنْبَرِيُّ إِلَى تَصْوِيبِ أَقْوَالِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي أُصُولِ الدِّينِ فِيمَا كَانَ عُرْضَةً لِلتَّأْوِيلِ وَحَكَى الْقَاضِي ابْنُ الْبَاقِلَّانِيِّ مِثْلَهُ عَنْ دَاوُد بْنِ عَلِيٍّ الْأَصْفَهَانِيِّ، وَحَكَى قَوْمٌ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قَالَا ذَلِكَ فِيمَنْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْ حَالِهِ اسْتِفْرَاغَ الْوُسْعِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنَا وَغَيْرِهِمْ، وَقَالَ الْجَاحِظُ نَحْوَ هَذَا الْقَوْلِ : وَتَمَامُهُ فِي أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَامَّةِ وَالنِّسَاءِ وَالْبُلْهِ مُقَلِّدَةِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ لَا حُجَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ طِبَاعٌ يُمْكِنُ مَعَهَا الِاسْتِدْلَال ، وَقَدْ نَحَا الْغَزَالِيُّ قَرِيبًا مِنْ هَذَا الْمَنْحَى فِي كِتَابِ « التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالزَّنْدَقَةِ » وَقَائِلُ هَذَا كُلِّهِ كَافِرٌ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى كُفْرِ مَنْ لَمْ يُكَفِّرْ أَحَدًا مِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ ، وَكُلُّ مَنْ فَارَقَ دِينَ الْمُسْلِمِينَ وَوَقَفَ فِي تَكْفِيرِهِمْ أَوْ شَكَّ، لِقِيَامِ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ عَلَى كُفْرِهِمْ، فَمَنْ وَقَفَ فِيهِ فَقَدْ كَذَّبَ النَّصَّ[4]

(1) الشاطبي، ابراهيم بن موسى، الاعتصام، تحقيق الهلالي ج 1 ص96
(2) الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد، فيصل التفرقة ص87
(3) الجويني، أبو المعالي إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله، لمع الأدلة، ص 26 دار المعارف 1984
(4) القاضي عياض بن موسى بن عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج2 ص282 نشر دار الفيحاء عمان، 1987

القشيري (ت 465هـ):

يمثل أبو القاسم القشيري عبد الكريم بن هوازن وهو من أعلام المفسرين في كتابه لطائف الإشارات في تفسير القرآن الكريم مدرسة الصوفية من أهل السنة في العرفان بالله تعالى موقفًا متقدمًا في قبول إيمان الأمم أيًا كانت أديانها، وقد كتب في تأويل آية البقرة: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }

اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول، فمن صدّق الحق سبحانه في آياته، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته، فتباين الشرع واختلاف وقوع الاسم غير قادح في استحقاق الرضوان، لذلك قال: «إن الذين آمنوا والذين هادوا» ثم قال: «من آمن منهم، أي إذا اتفقوا فى المعارف فالكلّ لهم حسن المآب، وجزيل الثواب، والمؤمن من كان فى أمان الحق سبحانه، ومن كان فى أمانه- سبحانه وتعالى- فبالحريّ ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.[1]

ثم قال: وَلَا إِشْكَالَ فِي عَدَمِ اشْتِرَاطِ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي مُعَامَلَةِ اللهِ - تَعَالَى - لِكُلِّ الْفِرَقِ أَوِ الْأُمَمِ الْمُؤْمِنَةِ بِنَبِيٍّ وَوَحْيٍ بِخُصُوصِهَا؛ الظَّانَّةِ أَنَّ فَوْزَهَا فِي الْآخِرَةِ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهَا مُسْلِمَةٌ أَوْ يَهُودِيَّةٌ أَوْ نَصْرَانِيَّةٌ أَوْ صَابِئَةٌ مَثَلًا، فَاللهُ يَقُولُ :إِنَّ الْفَوْزَ لَا يَكُونُ بِالْجِنْسِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِإِيمَانٍ صَحِيحٍ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى النَّفْسِ، وَعَمَلٌ يَصْلُحُ بِهِ حَالُ النَّاسِ؛ وَلِذَلِكَ نَفَى كَوْنَ الْأَمْرِ عِنْدَ اللهِ بِحَسْبِ أَمَانِيِّ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَثْبَتَ كَوْنَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَعَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ[2]

وقد كرر موقفه في الآية 69 من سورة المائدة:

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }

بيّن أنهم- وإن اختلفت أحوالهم- تجمعهم أصول التوحيد فلهم الأمان من الوعيد، والفوز بالمزيد.

---

(1) القشيري، عبد الكريم بن هوازن، لطائف الإشارات ج1 ص 96 طبع الهيئة المصرية للكتاب
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج1 ص 279

القاسمي:

وللشيخ جمال الدين القاسمي في لباب التأويل موقف دقيق في تأويل آية البقرة، ذهب فيه إلى أن البشر لا يطالبون إلا بما قامت فيه عليهم الحجة بيقين، وأن الحساب والعقاب للمعاند الذي عرف الحق فجحده علوًا واستكبارًا أما من عبد الله بدين غير الإسلام، ولم يبلغه ما يكفي لقيام الحجة والبرهان فهو من الناجين على أي دين كان:

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }.

فقال: نقل الأصوليون في باب الاجتهاد والتقليد أن العنبريّ ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب، حتى في الأصول، ووافقه الجاحظ، قال الغزاليّ في المستصفى: ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية، إن كان معاندا على خلاف اعتقاده، فهو آثم. وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم. وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر، فهو أيضا معذور. وإنما الآثم المعذب، المعاند فقط. لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها. وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق، ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى، إذ استد عليهم طريق المعرفة.(1)

وبذلك فإن القاسمي ينقل عن جماعة من السلف القول بنجاة الموحدين من كل الملل، سواء نظروا أو لم ينظروا، ولا يرى هلاك أحد منهم إلا من قامت عليه الحجة بيقين، ولكنه ترك الالتزام وآثر هواه فأعرض واستكبر وكان من الكافرين.

تفسير المنار

ذهب الشيخ محمد رشيد رضا صاحب تفسير المنار إلى القول بأن أَهْلَ الْأَدْيَانِ الْإِلَهِيَّةِ - وَهُمُ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ نَبِيٍّ عَلَى وَجْهِهَا وَبِشَرْطِهَا - إِذَا آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ الَّذِي بَيَّنَهُ نَبِيُّهُمْ وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، فَهُمْ نَاجُونَ مَأْجُورُونَ عِنْدَ اللهِ - تَعَالَى ....

وقال: ثُمَّ أَزِيدُ الْآنَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالتَّفْصِيلَاتِ إِنَّمَا هِيَ فِي الْمُؤَاخَذَةِ عَلَى اتِّبَاعِ دَعْوَةِ الرُّسُلِ وَعَدَمِهَا. ..... وَالْمَعْقُولُ الْمُوَافِقُ لِلنُّصُوصِ أَنَّ اللهَ -

(1) القاسمي، جمال الدين، لباب التأويل، ج 1 ص317

تَعَالَى - يُحَاسِبُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ مَا بِحَسْبِ مَا عَقَلُوا وَاعْتَقَدُوا مِنَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَمُقَابِلِهِمَا.[1]

وفي الواقع فإن ما اختاره الشيخ محمد رشيد رضا أدنى مما ذهب إليه الإمام محمد عبده، ولكنه على كل حال يخدم الغاية نفسها وهي ربط عدالة الله تعالى بمصير العباد، وتنزيهه عن العبث في خلق الخلق وزجهم في نار السعير.

كتب الديارات

ونجد من المفيد هنا أن نضيف فقرة نتحدث فيها عن كتب الديارات في التراث الإسلامي، والمقصود بالديارات جمع دير، وقد كتب عدد من الأدباء كتبًا في وصف الأديرة في المدن الإسلامية، ومن المدهش أن ما قدمه هؤلاء الأدباء ناضح بروح من المودة والمحبة والثقة كانت سائدة بين الأديب المسلم وبين المجتمع الكهنوتي في الأديرة حيث يتعبد الرهبان النصارى، فقد كان الأديب يصف عجائب الدير وحسن ما فيه وينظم الأشعار الجملية والفريدة، وما يكون فيه من الأعياد والمناسبات والأحزان والأتراح، ويروي عن الرهبان بديع الكلام، وفريد الحكمة، وهو ما يعكس هامشًا حيويًا من إخاء الأديان تقدم إليه الأدباء في الإسلام وإن كان قد انصرف عنه الفقهاء ورجال الدين.

ومن أهم كتب الديارات:

الديارات للأصفهاني

هو علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني توفي 356هـ الموافق 967م وقد ترك تراثًا ضخمًا في الأدب والرواية، وفي كتابه الديارات يقدم الأصفهاني تعريفًا ب 52 ديرًا في العراق والشام، ويمهد بمقدمة يتحدث فيها عن الأديرة ووظائفها الدينية والاجتماعية.

وتعكس الروايات التي قدمها والقصائد الأربعين التي رواها بمطلع: يا دير، تكشف عن روح من الإيجابية والوداد كانت تسود بين مجتمعات الرهبان وبين محيطهم القروي، ويروي عشرات الأخبار عن زيارات قام بها فقهاء مسلمون لهذه الأديرة، ومدى الأمان

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ج1 ص 281 طبع الهيئة المصرية للكتاب

الذي كان متوفرًا لأصحاب الديارات ونزلائها، وحجم التعاون بينهم وبين المجتمعات المحلية.

الديارات للشابستي

علي بن محمد الشابستي توفي 390 هـ وكان معاصرًا ونديمًا مقربًا للخليفة الفاطمي العزيز بن المعز، وكان يطوف عليه بنوادر الآداب، وكان من أجود ما كتبه كتابه الديارات التي تحدث فيها عن نحو أربعين ديرًا في العراق والشام وفلسطين ومصر، وكان يقدم هذه الأديرة بروح من الصفاء والإعجاب وحسن المعاملة، ويشير إلى ما كان يلقاه من تكريم ومودة فيها.

شعر الديارات للشتيوي

ونشير ايضًا إلى عمل مهم للدكتور صالح الشتيوي، وقد نشرته وزارة الثقافة في الأردن، وقصد إلى جمع أهم ما كتب في الديارات، وكذلك أهم ما يروى عن الديريين، من كهنة ورهبان، في الغزل والفن والخمرة والوداد والعشق، ويرسم من خلالها صورة المجتمع الإسلامي بلونيه الإسلامي والمسيحي في العصر الذهبي للإسلام.

وعلى الرغم من تأكيدنا بأن التيار الغالب في الفقهاء لا يزال يرفض كل أشكال الحديث عن إخاء الأديان، ولكن يجب الانتباه أن الأمر ليس بهذه الصورة القاتمة، بل تحقق تطور كبير باتجاه بناء إخاء واقعي بين الأديان، على مستوى اللاهوت والناسوت، ويمكنني أن أجمل بهذا الجدول خمسة أصناف رئيسيين ومؤثرين في المجتمع الإسلامي باتوا يدافعون بحماس عن إخاء الأديان

المجموعة الأولى	الفلاسفة	قبلوا إخاء الأديان إيمانًا بعدل الله وشمول رحمته وتنزيهًا له عن العبث والظلم	ابن سينا والفارابي والسهروردي والبيروني والكندي وابن رشد وابن باجه وابن طفيل
المجموعة الثانية	الصوفية	قبلوا إخاء الأديان بوصف الله تعالى هو المعبود على سبيل الحقيقة بخلاف ظاهر الحال	الشيخ محي الدين بن عربي وصدر الدين القونوي وابن سبعين والأمير عبد القادر الجزائري
المجموعة الثالثة		قبلوا إخاء الأديان بوصف الأديان إرادة الله وأمره وجبره، وأتباعها عباد مأمورون	الحلاج والسهروردي وعبد الكريم الجيلي والعفيف التلمساني
المجموعة الرابعة	الإنسانيون	قبلوا إخاء الأديان إيمانًا بالخير الإلهي في كل خلقه ومظهرًا للسمو الاجتماعي والحضاري	إخوان الصفا وجلال الدين الرومي والسلطان المغولي أكبر شاه والملك الكامل الأيوبي ومحمد إقبال ومالك بن نبي وروجيه غارودي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وحسن الترابي وجودت سعيد
المجموعة الخامسة	الحقوقيون	قبلوا إخاء الأديان عملًا بمقاصد الشريعة العليا، والتزامًا بالقانون الدولي	اللجان التشريعية والأسرة البرلمانية في 52 دولة إسلامية من أصل 57 دولة إسلامية

وإذ أضع القلم فإنني آمل أن تكون هذه الدراسة قد قدمت مفيدًا وجديدًا لمؤتمرنا، وإنني أرجو أن تكون منطلقًا لدراسات عميقة تتناول كل واحد من جوانب الاستدلال بلغة فقهية موضوعية.

وفي الواقع فإن سائر الديانات خاضت مخاضًا كهذا، فقد كان الكهنة كانوا يقفون باستمرار ضد التوجه التكاملي مع الآخرين، ويفضلون التأكيد على احتكار الحقيقة واحتكار الخلاص، ولكن رجال الفكر والحكمة لم يتوقفوا في كل الأديان عن المواجهة مع التيارات المتشددة، ولم يكن التحول سهلًا، ولكنه كان ضروريا ومكلفا، وقد باتت جهودهم مثمرة وناجحة، وأصبح التيار المؤمن بالإخاء الإنساني في سائر الأديان أكبر من التيار المطالب بالانعزال والعكوف على ثقافة القدماء واختياراتهم.

إن الإسلام مؤهل أن يكون رائدًا في ثقافة إخاء الأديان وكرامة الإنسان، فنصوصه طافحة بهذه الحقائق، ومنهجه التربوي طافح باستمرار برفض الآبائية والوراثية، وهو يؤكد باستمرار على البحث في المستقبل: قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟

وحين نستعرض الماضي بكل تلويناته، من تاريخ وتراث وثقافة، وما ارتبط به من نزاع وحروب، وكذلك من نصوص وردت في ظروف مختلفة تمنع الإخاء الإنساني، وتحول دون اللقاء والإخاء بين أهل الأديان، فإن المنهاج القرآني أصيل وواضح وقد تكرر في صفحة واحدة مرتين: تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون.

لقد حان الوقت لينفض المسلم عن نفسه وهم الشعب المختار، وكذلك المسيحي واليهودي بالطبع، والأديان الشرقية، وحان الوقت أن يدخل الجميع إلى عقد جديد يؤمن فيه الجميع بالدين قوة روحية طامية، ونورًا يشرق به الله في قلب ابن آدم، والنور لا يطفئ النور، والعافية لا تشاقق العافية، والأمل لا يصادم الأمل، إنها قيم تتراكم في

انبثاقها من الذات الإلهية التي يقدمها القرآن الكريم كما يقدمها الإنجيل الكريم، كما تقدمها كتب الحكمة في سائر العصور.

ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم.